رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دراسات في التصوف الإشراقي

البوادر الغيبية في النوادر العينية

للشيخ عبد الكريم الجيلي[١][٢]

يقول الشيخ الجيلي في كتابه: «الإنسان الكامل»: (مثل العالَم مثلُ الثلج، والحقُّ - سبحانه وتعالىٰ - الماء الذي هو أصل الثلج، فاسم تلك الثلجة علىٰ ذلك المنعقد مُعَارٌ، واسم المائيَّة عليه حقيقة، وقد نبهت علىٰ ذلك في القصيدة المسماة: بالبوادر الغيبية في النوادر العينية، وهي قصيدة عظيمة لم ينسج الزمان علىٰ كُمِّ الحقائق مثلَ طِرازها، ولم يسمح الدهرُ بفهمها؛ لاعتزازها)[٣].

---

(١) (٥-٦/ ١٣٧٨هـ).

(٢) ولد سنة ٧٠٧ هـ. وهو من «جيلان» الواقعة جنوبي بحر قزوين، ومن أحفاد الشيخ عبد القادر الجيلاني الصوفي، الذي مزج بين الرسوم والإشراق في تصوفه، وقد عاش عبد الكريم في اليمن وتتلمذ علىٰ أستاذه إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي، ورحل إلىٰ كثير من البلدان، فعب من ثقافات شتىٰ؛ ثم توفي سنة ٨٢٦، بعد أن خلف وراءه تراثًا ضخمًا من كتب التصوف، وتعتبر إشراقية الجيلي امتدادًا لإشراقية ابن عربي وابن الفارض.

(٣) (صـ ٣٠٣/ جـ١) ط ١٩٢٣هـ، ويريد الجيلي بهذا: أن يجعل النسبة بين الحق سبحانه والخلق، كالنسبة بين الماء والثلج، فالثلج عين الماء في حقيقته وماهيته، مغاير له في اسمه ومظهريته، فالغيرية بين الماء والثلج صورية لا حقيقية. وكذلك الحق والخلق: فالخلق عين الحق في هويته وذاتيته، ولكنه غيره في اسمه فحسب. الثلج هو هو الماء، وما أطلق علىٰ ذلك اسم الثلج إلا مجازًا؛ والخلق هو هو الحق، وما أطلق عليه اسم الخلق إلا مجازًا،

وقد بحثنا طويلًا عن هذه القصيدة التي يقول عنها صاحبها: «لم ينسج الزمان علىٰ كم الحقائق مثل طرازها» حتىٰ أذن الله سبحانه، فعثرنا عليها[1] وأخذنا ندرسها بعناية دراسة واعية، نستهدف من ورائها شيئًا واحدًا، هو الوصول إلىٰ الحقيقة، حقيقة ما يقصده الجيلي القطب الصوفي الكبير.

فنحن الآن في عصر يبحث عن القيم النبيلة، وينشد أرفع الْمُثُل، عصر يبني الحياة من جديد، والحياةُ الطيبة إشراق من الدين الطيب، والمثلُ التي تتسم بالنبل والقداسة والرفعة إنما هي سلسبيل صاف من نبع الدين الحق.

فنحن - إذن - لا نبحث بحثًا نظريًّا لا هدف له. وإنما نبحث، لنضع علىٰ الطريق معالم الهداية للسالكين، ولنؤكد للذين ينشدون الحقيقة: أن القرآن والسنة الصحيحة - وحدهما - هما النبع المقدس، والمنار الخالد للهداية الإلهية، فلسنا في حاجة إلىٰ هدىٰ أو حقيقة إلا من هذا الذكر الحكيم ببيان من نزل به الروح الأمين علىٰ قلبه ﷺ.

فهل ما سطره الجيلي في قصيدته يتصل بأسباب الهداية القرآنية؟

وهل ما دعا إليه الجيلي يصلح أن يكون سبيلًا يسلكه الإنسان؛ ليصل منه إلىٰ

= فالخلق والحق مظهران، أو اسمان، أو صفتان سميت بهما حقيقة واحدة هي الذات الإلهية.

(١) سمع الأخ الكريم عبد الحكيم حسين هندي ببحثنا عن هذه القصيدة، فتفضل - مشكورًا - بإهداء هذه القصيدة إلينا مكتوبة بخطه الواضح الجميل، وقد فرغ من نسخها لنفسه سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م، فأثبت بهذا حرصه الكريم علىٰ المشاركة في الذياد الحق عن السنة المطهرة؛ ويسعدني أن أثبت له هنا عظيم تقديري، وطيب ثنائي وجميل شكري.

الحقيقة؟ وهل أتىٰ الجيلي في هذه القصيدة بشيء جديد؟ أو هو يسير في نفس الطريق الذي سلكه شيوخه من قبل؟

وهل هذا الطريق يصل بسالكه في نهايته إلىٰ رضوان الله سبحانه، وسعادة الأولىٰ والأخرىٰ؟

هذه أسئلة أقدم بها لهذا البحث، وأرجو أن يجد القارئ فيما نكتب أجوبة صادقة صحيحة، مدعمة بالأدلة القاطعة عن هذه الأسئلة.

ونحب أن نؤكد لمن يتعصبون للجيلي أو لغيره، أننا لن نُحَمِّل ألفاظه غير ما أراد لها الجيلي نفسه من معنىٰ، وأننا سنقارن[1] بين ما دان به الجيلي، ودعا الناس إلىٰ أن يدينوا به، وبين دعوة رسول الله ﷺ.

ونحب أن نؤكد كذلك لهم: أننا لا نتعصب أبدًا لغير الحق المشرق من هداية القرآن العظيم؛ وبيان السنة الصحيحة الصريحة.

قصيدة الجيلي في صورتها الأدبية:

جيدة السبك في بعض أبياتها، مفككة في بعضها الآخر. وقد استغل فيها المحسنات اللفظية استغلالًا فاحشًا: «كالجناس، والمقابلة، والتورية» مما جعلها أشبه ما تكون بالزنجية المثقلة بالأصباغ والحلي. هذا إلىٰ ما امتلأت به من أخطاء نحوية كثيرة.

وأجود ما في القصيدة من أبيات: هي تلك التي يتغزل فيها الشاعر، ويكشف

---

(١) سيرىٰ القراء أن الأمر في غير حاجة إلىٰ المقارنة، إذ يكفي مجرد تصور دين الجيلي في ثبوت بطلانه وزيغه، بيد أننا نريد أن نذهب إلىٰ أبعد مدىٰ في البر بالحقيقة.

فيها عن لوعة الحرمان وظمإ العشق، وولَه الصبابة، وإن كان يزعم أنه إنما يتغزل في الذات الإلهية؛ ولكننا سنعرض عليك غزله، وثمت تحكم بأنه إنما يتغزل في امرأة شغفته حبًّا، ثم تركته لسهد الحب وليالي حرمانه، وأسحار أرقه وشَجْوه ودموعه.

وهكذا كان شيوخه من قبل، فابن عربي الحاتمي استعصت عليه ابنة الشيخ مكين الدين، فغازلها وقدم إليها قربانه الأدبي «ترجمان الأشواق» ولكنها أبت أن تستجيب للهفته، أو أن تؤمن - كما صورها - بأنها هي الذات الإلهية في صورة امرأة جميلة.

ثم إن الجيلي يسطو علىٰ معاني غيره ممن سلكوا نفس طريقه من قبل، ويصوغها صياغة جديدة، ليس فيها الجمال الأدبي الموجود في الأدبيات التي صيغت بها من قبل، والذين سرق منهم هم: ابن عربي، وابن الفارض، وما نسب لرابعة العدوية[1].

فاسمع إليه يقول متغزلًا:

وبي من مريض الجفن سُقْمٌ مُبَرِّحٌ ... ولي في عَصِيِّ القلب دمع مطاوع

إن «مريض الجفن» و«عصي القلب» يكشفان لك - في غير ما خفاء - أن الجيلي إنما يخاطب امرأة تنام أجفانها عن الإغراء والفتنة، ويأبىٰ قلبها القاسي أن يحنو علىٰ وجيعة الجيلي العاشق.

---

(١) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية القيسية، أم الخير، مولاة آل عتيك، تكلم فيها أبو داود السجستاني، واتهمها بالزندقة، فلعله بلغه عنها أمر، وكانت أول من تغنىٰ بالحب والعشق الإلهي، توفيت سنة (١٣٥هـ)، وقيل: سنة (١٨٥هـ).

[انظر: السير (٢/ ٢٤١)، الأعلام (٣/ ١٠)، البداية والنهاية (١٠/ ١٨٦). (ض).

أما سرقته من ابن الفارض فتتجلىٰ لك واضحة في قوله:

فكنتُ أنا هي وهي كانت أنا ... وما لها في وجود مفرد من ينازع

وابن الفارض يقول:

وما زلت إياها وإيايَّ لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحَبَّتِ

وأما سرقته من ابن عربي، ففي قوله:

وإياكَ والتنزيه، فهو مُقَيِّد ... وإياك والتشبيه فهو مخادع

أخذ عن ابن عربي قوله:

فإن قلت بالتشبيه: كنت محددًا ... وإن قلت بالتنزيه: كنت مقيدًا

وأما سرقته من رابعة، ففي قوله:

أحبك لا لي بل لأنك أهله ... وما لي في شيء سواك مطامع

أخذه عن قول المفتونة رابعة: (ما عبدتك طمعًا في جنتك، ولا خوفًا من نارك، وإنما عبدتك لذاتك».

وأما أخطاؤه النحوية، فما أكثرها. مثل:

فكل بهاء في ملاحة صدره ... علىٰ كل قَدٍّ شابه الغصنَ يانعُ

ومثل قوله:

فعينك شاهدها بمحتد أصلها ... فإن عليها للجمال لوامعُ[1]

---

(١) رفع كلمة «يانع» في البيت الأول، وحقها أن تكون مجرورة؛ إذ هي صفة لكلمة «قد»، ورفع كلمة «لوامع» في البيت الثاني؛ وحقها أن تكون منصوبة؛ لأنها اسم مؤخر لإن.

وأما استغلاله للمحسنات اللفظية، ففي مثل قوله:

ويرفع مقدار الوضيع جلاله إذا لاح فيه فهو للوضع رافع

قابل بين ضدين في هذا البيت، وفي قوله:

فليس لنفسي غير حالة وقتها وقد فات ماضيها وغاب مضارع

ورَّىٰ في كلمتي «ماض» و«مضارع» وضمَّن البيت مصطلحاتٍ نحوية «حال- وقت- ماض- مضارع» فليس في شعره الصوفي من جمال، اللهم إلَّا إذا هتك القناع عن الشعور المحترق من لهفته علىٰ جسد ملأ دنيا صباباته وهيمانه.